العرب
الأحد 2021/10/10
السنة 44 العدد 12205

درس جديد في التاريخ: الشعوب لا تتغير كما نظن

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

عندما كنت أتصفح الكتب في مكتبة صديق لفت نظري كتاب عن العراق صدر عام 1969. يتحدث الكتاب عن مرحلة سبقت سقوط الملكية، لكنه يركز على "عراق قاسم". في المقدمة والفصول الأولى ثمة استعراض تاريخي وآخر اجتماعي يتداخلان ببعضهما البعض.

هذا النوع من الكتب يستثير المهتم. كنت قرأت قبل سنوات طويلة كتاب حنا بطاطو عن التاريخ الحديث للعراق وطبقاته السياسية والاجتماعية. أكثر ما أثار الانتباه بالنسبة إليّ آنذاك أنه طبع عام 1977؛ أي أنه لم يصل إلى مرحلة التغييرات العاصفة في العراق الحديث، خصوصا تأثيرات الحرب العراقية – الإيرانية، وما أعقبها من غزو للكويت وحرب تحريرها والحصار الخانق ثم الانهيار الكبير في 2003. تستطيع أن تفهم أكثر لأن الكاتب يعالج مرحلة أوصلت إلى ما بعدها من دون محاولة لاستقراء المستقبل. المستقبل كان في علم الغيب.

الشعوب تتفاعل مع المؤثرات وتحاول أن تتأقلم معها، لكن الشخصية القاعدية لمجتمع ما تبقى كما هي إلى حد كبير

كتاب "العراق في عهد قاسم" أكثر استفزازا. لكي يصدر في نهاية الستينات، يكون قد أعدّ على الأقل في النصف الثاني من الستينات. أبعد بعشرة أعوام تقريبا عن سنة نشر كتاب بطاطو. البعث لم يصل إلى السلطة، ولا صدام حسين ولا الخميني. زد على ذلك أن الكاتب أوريل دان إسرائيلي. ما دخلهم في العراق كي يكتبوا عنه. ثم تقرأ وتُصدم بكم يعرف عن العراق، وكم لديه من القدرة على وصف أحواله. الصدمة الأكبر أن ما كتبه قبل نصف قرن يصح إلى حد كبير على عراق اليوم.

كل هذا الثراء من النفط والألم في التفوق والألم من الحروب والعذاب من الحصار والتشرذم من الغزو، لم يغير الكثير في العراقيين. لم يرجم الكاتب بالغيب، ولكن من الواضح أن العلوم الاجتماعية تمتلك الكثير من الأدوات التي تغيب عنا بسهولة خصوصا عندما يصبح الأمر عاطفيا وتصبح الدلالات ببعد شخصي أو ذاتي، محب أو كاره، فتختفي الكثير من ملامح الصورة.

للإنصاف، فإن موضوع العراق ببعده الاجتماعي كان قد تصدى له عالم الاجتماع العراقي الراحل علي الوردي في سلسلة كتب طويلة. ورغم أن الوردي شخّص الكثير من مشاكل المجتمع العراقي، إلا أنه أسهب في الكتابة وأغرق القارئ بكثير من الأمثلة والتفاصيل في متن التحليل، فكان من السهولة أن تضيع الفكرة التي يستطيع باحث غربي اختزالها وتقديمها بتكثيف معرفي أكبر (في تقديري، الإسرائيليون غربيون على الأقل في طريقتهم بالبحث العلمي والاجتماعي). لو توفر للوردي محرر بارع ليزيل الكثير من الزوائد أو ليحيلها إلى الملحقات في نهاية كل كتاب من كتبه، لكان قد وُفّق في تقديم صورة أسهل للفهم.

تعلمت درسا جديدا في التاريخ: أن الشعوب لا تتغير كما نظن. الشعوب تتفاعل مع المؤثرات، وتحاول أن تتأقلم معها، لكن الشخصية القاعدية لمجتمع ما تبقى كما هي إلى حد كبير. الاختراع الذي اسمه الدولة والذي استعاض عن فكرة الإمبراطورية بعد تفكيك الإمبراطوريات، هو وجه من أوجه ممانعة التغيير. هذه الكتلة البشرية تقترب من بعضها البعض وتسمي نفسها ألمانْ أو إيطاليين، لتكون أساس الدولة التي تنتظر موحدها أو صانعها.

الأديان والصراعات الدينية والتبشير بالسلاح أو بالكلمة تفرض أنماطا من التغيير. لكن أُنظرْ إلى حجم القسوة التي تمارس من قبل الأديان لفرض هذه التغييرات. ثم أعد النظر بالأديان نفسها وتمعّن في صيغتها الأولية، أي في مراحلها الأولى. هل كانت تلك الأديان تختلف كثيرا عن نمط الأعراف القبلية والاجتماعية السائدة؟ إتمام مكارم الأخلاق يشير أول ما يشير إلى منظومة أخلاقية سائدة تنتظر من يتمّها وليس من يغيّرها.

الشعوب عصية على التغيير (لوحة للفنان سيروان باران)

ألبس رجب طيب أردوغان بدلة، وضع أمامه ميكروفونا واتركه يتحدث. هل هذا رئيس عصري بالمفهوم الحديث لرجال الدولة، أم "غازي" على حد وصف سلاطين الدولة العثمانية لأنفسهم فخرا؟ شخصية التركي القادم من السهوب في وسط آسيا والذي أسس أكثر من إمبراطورية قبل أن يؤول الأمر إلى العثمانيين بعد هزة الاجتياح المغولي الثاني للمنطقة، لا تزال حية وواضحة، ليس في شخصية أردوغان وحسب، بل في الكثير من الأتراك الذين تلتقيهم على مراحل مختلفة من الحياة.

في مطبعة مؤسسة "العرب" الغراء في التسعينات حين كانت المؤسسات في لندن تطبع صحفها بنفسها، كان فريق الطباعة تركيًا، وكان على رأسه "عمدة" لا يذكّرك إلا بشخصية الجاويش أو العريف التركي في الجيش الانكشاري. لم يكن يعامل فريقه كجنود في فصيل عسكري، بل بقي طوال السنين ممتعضا من أن صاحب المؤسسة عربي يوقّع على شيك راتبه آخر الشهر. كان يقول حاضر "أفندم" على مضض.

أعتقد أن من الضروري التعامل مع مفردة التغيير بحذر، خصوصا ببعدها الاجتماعي، وعندما يتجاوز الأمر حدود الأسرة الصغيرة. ما يبدو أنه تغيير، قد لا يكون إلا مظهرية تعبّر عن مزاج مرحلي سرعان ما يتبدد. المثل الفرنسي يقول ما معناه "لا تتغير الأشياء إلا لتعود كما كانت".

حتى التاريخ يختار أبناءه المفضلين

هتاف المسعودي

"الثورة كلمة تحترق في أتون الشجاعة والكفاح، عندما تصادفك هذه الكلمة يقشعر جسمك وتتذكر كل العظماء" (عبدالقادر الجزائري، أدهم خنجر، عبدالكريم الخطابي).

وتجرفك ذاكرة الثورات من الثورة الإنجليزية عام 1689 إلى الثورة المصرية سنة 1919 مرورا بالثورة الفرنسية سنة 1789.

ولكن كم احتمال أن تواكب ثورة في حياتك رغم أن الشعوب براكين خامدة لا تعلم متى ترمي حممها.

رمى الشعب التونسي مقذوفاته في 17 ديسمبر 2010/ 14 جانفي 2011 ووجدت نفسي قد أصبحت شاهدة على العصر.

كنت في الثانوية العامة زمن الثورة مراهقة حالمة وقد ملأتني الفلسفة إلى حد النخاع، خرجت في كل مظاهرة من الوقفة أمام قصر الحكومة إلى اعتصام الرحيل في باردو، التحمت مع أبناء شعبي وملأني عشق الوطن.

عندما كان الرئيس الراحل زين العابدين بن علي في الحكم كانت تتحكم في تونس اقتصاديا 3 عائلات: "الطرابلسي" و"بن عياد" وبشكل ضئيل "بن يدر"، وجميعها متصاهرة ولديها ميليشيات خاصة تتجسس على المواطنين، وكانت تونس تستعد لاستقبال قاعدة الأفريكوم "القيادة العسكرية الأميركية في أفريقيا" ومقرها الجديد هو قاعدة سيدي حمد بمحافظة بنزرت، ورغم نفي تونس وعدم نفي أو تأكيد الولايات المتحدة إلا أن هذه الخطوة لقيت رفضا قاطعا من المواطنين ولكن على المستوى المعيشي كانت المواد الأساسية تباع بسعر رخيص وكان الدينار التونسي مساويا تقريبا لليورو.

في خضم تلك الأحداث عاد المطرودون إلى تونس وخرج المسجونون من معتقلاتهم وظهرت الحركة الإخوانية متمثلة في حركة النهضة الفارس المغوار الذي سيجعل تونس تزدهر أكثر وسيخلصنا من الفساد والمفسدين، ولكن.. هل قدرنا نحن العرب أن تسرق منا ثورات أحلامنا؟

مرت 10 سنوات تحت حكم الإخوان وسيلتهم في الحكم اللعب على الوازع الديني وغايتهم السيطرة على كل جوانب الدولة وجعلها تتلاشى، والهدف هو البقاء حتى ولو حكموا أطلال وطن وتراجعت قدرة التونسي المعيشية ووصل الدينار إلى الحضيض ومن ثلاث عائلات تسلب قوت التونسيين إلى عدد لا يحصى من اللصوص. ترى متى يحين للعرب الفصل بين الدين والسياسة؟

لم تعرف الشعوب الأوروبية الازدهار إلا حين فصلت السياسة عن الكنيسة في عصور النهضة بعدما مارسته هذه الأخيرة على الشعوب من استبداد وجور على أرواحهم وأنفسهم وأموالهم.

إذ كانت الكنيسة تدّعي أن الله يحكم العالم من خلالها فأحلّت لنفسها السيطرة على الناس ونصبت نفسها فوق كل سلطة سياسية. فلا وجود لنهضة حضارية للعالم العربي إلا إذا فصل الدين عن الدولة. أليس حقا "الدين أفيون الشعوب" كما قال ماركس؟

لا يعني ذلك سيدي القارئ أنني ضد الدين بما هو صلة بين الإنسان والخالق ومحقق للطمأنينة النفسية ولكني ضد أن يتحول الدين إلى "تعاسة واقعية"، فالحروب الدينية أو الحروب المقدسة التي عرفتها البشرية هي حروب مبررة من أساسها بسبب الاختلافات الدينية، ووفقا لموسوعة الحروب من بين جميع الصراعات التاريخية المسجلة البالغ عددها 1763 صراعا كانت الاختلافات الدينية مسببة بشكل رئيسي في 123 صراعا.

وليس لبنان البلد ذو الحكم الطائفي ببعيد عنا، وليس ما شهده من حرب أهلية سياسية تحت غطاء ديني بغريب.

ألم يحن الوقت لثورة أخلاقية؟

ما يحتاجه العالم العربي أو بالأحرى العالم اليوم هو ثورة أخلاقية تقطع مع كل ما هو غير قيمي.

فالأزمات التي نشهدها الآن سواء في سوريا أو العراق أو فلسطين أو تونس أو ليبيا... هي نتيجة تزاوج بين الأخونة السياسية وكل ما هو لا أخلاقي.

فالأخلاق، بما هي دراسة معيارية للخير والشر تهتم بالقيم المثلى وتصل بالإنسان إلى الارتقاء عن السلوك الغريزي بمحض إرادته الحرة النابعة من ضميره ووعيه، تتعارض تماما مع الأخونة السياسية للدين التي تجعل منه موضوعا ماديا بحتا قائما على منطق الكسب والخسارة. لذلك سيدي القارئ يجب ألاّ تكون سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

قرأت على حائط جملة تشبثت بأطراف قلبي "أن تخلق يعني أن تقاوم"، بحثت ولكني لم أعرف من قالها ربما شخص ما كتبها في لحظة نزال مع الحياة. وتساءلت كم شخصا كتبت عليه المقاومة؟ كم شخصا انتصر وكم عدد الذين رفعوا الراية البيضاء معلنين الهزيمة؟

لو بحثنا في التاريخ مكمن أسرار الإنسان لوجدنا عددا لا يحصى من المقاومين منهم من ذكر وآخرون سقطوا تحت أطلال الزمن، وحده الوقت من قابلهم وتعرّف عليهم.

كثيرا ما أحسد الوقت وكثيرا ما أغضب منه، لا بل يزعجني فمقاومتنا أمامه فاشلة، مهما ركضنا خلفه أفلت منا كتسرب الرمال من بين الأصابع.

سأتحدث عن أولئك المقاومين الذين جرفتهم الذاكرة إلى قاع الزمن ولم تسمع بهم أو غالبا لم تلاحظهم، هم بالآلاف لا بل بالملايين يمرون بجانبك كل يوم أو ربما كنت أنت يا قارئي منهم.

لن أحدثك عن يوسف وهبي أو أوسكار هوكر بل عن فنان مشرد يبحث عن مسرح يحمّله مآسيه وآماله، يحلم بدقات الحياة الثلاث وخبت ناره قبل أن يسمعها. لن أخبرك عن الليبي عمر المختار أو التونسي الدغباجي، بل عن أولئك الذين دفنوا تحت الألم دون أسماء أو شواهد قبور.

لن أذكر لك تاريخ الحروب بل سأذكّرك بأولئك اللاجئين الذين ما عرف لهم عنوان. لن أسرد لك أسماء المجاعات بل سأسرد لك عن الذين يجوعون في الخفاء تحت ستار الفقر. ولن أقص عليك خبر تشي غيفارا أو غاندي بل عن أولئك الذين قتلوا داخل زنازين معتمة والتهمة كلمة حرة.

ما يحتاجه العالم العربي، أو بالأحرى العالم اليوم، هو ثورة أخلاقية تقطع مع كل ما هو غير قيمي

أرأيت يا قارئي، حتى التاريخ يختار أبناءه المفضلين. أما أنا وأنت سننسى كليلة باردة في شتاء دافئ.

فكرت مطولا ماذا أكتب؟ بحثت ولم أجد أفضل منا نحن كموضوع. الإنسان هذا الكائن العجيب الذي تعتمل في داخله كل أضداد الوجود. هل مازلنا نستحق كلمة إنسان؟

عندما درست فوكو منذ سنوات بنظرة الحالم شعرت بانزعاج طفلة سعيدة بنسيم الحياة. كيف يعلن وفاة الإنسان تلك الذات السامية على التشيّؤ؟ ولكن بعد سنوات من الموضوعية الفكرية أصبح جزء كبير مني يعلن موت الإنسانية. فهل هناك ارتباط بين التطور المعرفي وفقد الإنسان لأحاسيسه؟

لو قارنا الفن والأدب بين الماضي والحاضر لاكتشفنا هوة عميقة بين المعرفة والشعور. فهل نجد اليوم من يكتب برقة جاين أوستن أو جبران خليل جبران أو من يغني مثل أم كلثوم وجاك بريل؟ كأن الكلمة والمحبة بدأتا بالتلاشي أمام سطوة وسائل التواصل الحديثة. فكيف نحب من خلف شاشة ونعشق بضربة زر؟

حتى الذكريات فقدت قيمتها، في الماضي يحفر الإنسان أفراحه وأتراحه في طيات عقله ويفتح بابه كلما اشتاق إلى ذكرى أو شخص. اليوم نلغي حلاوة اختزال الذاكرة البصرية ونعوضها بأخذ صورة، حتى عذوبة التأمل فقدناها. من منا مازال ينظر إلى جمال السماء ويتأمل إشعاع نجومها؟

عندما تشاهد فيلم "الأزمنة الحديثة" الصادر في منتصف الثلاثينات للعملاق تشارلي تشابلن تدرك أننا لسنا سوى استنساخ لشخصيته في الفيلم، نقبع تحت مجرفة التكرار ووطأة المكننة التي أراها انعكاسا لوسائل التواصل الاجتماعي اليوم. فهل ظل للإنسان شيء لم يفقده؟

إذ كان للإنسان جزء لم يفقده فهو جانبه الدموي الذي ازداد ضراوة، فكلما تطور الإنسان زادت رغبته أكثر فأكثر في السيطرة وتعطش إلى المزيد من الهيمنة وبدأت طبول الحرب بالعزف داخل روحه.

فمن الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية؛ هل الإنسانية في هدنة من أجل سلام مع النفس أولا؟

إن كان الإنسان مازال إلى اليوم يرفض الاختلاف بينه وبين الآخر في اللون أو العرق أو الدين فكيف يمكننا أن نتحدث عن هدنة إنسانية فكل الحروب نشأت بسبب رفض الاعتراف بالاختلاف وشيوع التعصب، من حرب 1814 إلى حرب 2021.

حتى أكون متشائلة، على طريقة إميل حبيبي، فالإنسان بما هو هذه الذات الخلاقة المتعالية قادر على اجترار بقايا إنسانيته ولو بدأت تتلاشى، فلطالما كان في جعبته المزيد.

ص10 وص11 وموضوع عامر سلمان أبومحارب في ص12 تنشر كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

نعيش أزمة قيم في عالم رقمي